محاضرة مقياس مدخل إلى الفلسفة العامة رقم 06

أصل الفلسفة: التأصيل الداخلي

الفئة المستهدفة: طلبة سنة أولى جدع مشترك علوم اجتماعية

مدخل: كان للتاريخ فلسفة، وأضحى للفلسفة تاريخ، وتاريخ الفلسفة تاريخ للإنسان حيث الإنسية هي مركز الثقل في حضارة البشرية. وقد كان الدافع الأول للبشرية قبل تشكل مملكة الإنس أوالإنسية أو الإنسانية هو الاستغراق الكلي في درء مخاطر التناطوس (الموت) لجلب روح تبيدها وتحيلها إلى روح مفعمة بالحب والفناء في البيوس التي يغمرها الإيروس. وقبل كل ذلك كان البيوس (الحياة) هو ديدن ومرام البشرية إذ ابتدأ الفكر يزهو بنفسه مستلهما ذاتا غير ذاته العقلانية حين مارس طقوس البيوميتوس (الحياة الأسطورية). وسنأتي على تفصيل هاته المحطات الآيلة إلى الغرابة واللاعقلنة حين نتدرج في تأصيل العرض التاريخي لتطور الفكر الفلسفي لاحقا. ومشكلتنا في مقام المقال نوجزها مختصرة: ما هو أصل الفلسفة؟ وكيف تدرج العقل في صقل ذاته وتهذيب نوازعه وأفكاره مرتقيا إلى آفاق بعيدة ومتشعبة أحالته باراديغما لمنظومة المعارف البشرية؟.

01/ الفلسفة من الدو افع الطبيعية إلى بدء التعقل:

أ ـ الدهشة: كان سقراط أول من نوه إلى ضرورة الاندهاش في ممارسة التفلسف أو التفكير الفلسفي، حين قصد بها تخطي عالم المألوف والسذاجة الكامنة في حس الناس المشترك، وقد اكتشف سقراط ذلك من خلال منهجه في البحث القائم على المحاورة العقلانية. ومفهوم الدهشة يرتبط بالتامل والتفكير العميق في العوالم والظواهر بطريقة تتعدى الإطار العادي. في هذا السياق يمكن اعتبار الأسلوب السقراطي في الحوار والتفكير عميقا ومفصلا معينا من تجسيد لفكرة الدهشة، حيث يمكن للأفراد أن يدهشوا بمعرفة معنى أعمق وأكثر تعقيدا للأمور. علاوة على ذلك كان سقراط يؤمن بأهمية وضرورة الشك والتساؤل العميق المجاوز لليومي أو العادي لمعرفة حقيقة الظواهر والمشكلات المتصلة بوجود الإنسان[1]. ولا شك أن انبجاس فاعلية الدوافع الطبيعية في الإنسان بنظر سقراط هي أولى الخطوات التي يسع الإنسان من خلالها معرفته بذاته لذاته، نحو الدهشة والحيرة والريبية الملازمة للتفكير الجاد. لقد كان يشجع مريديه على مناقشة الأفكار ليريهم عادة كيف يصعب العثور على أجوبة مقنعة عن الأسئلة والتساؤلات الفلسفية، وتلك الريبية المزامنة للفكر التي كان يثيرها الحوار السقراطي في العقول هي تعريف وجيز بكنية سقراط التي أطلقها على نفسه 'ذبابة الخيل'[2].

---

[1] ـ فارس رشيد البياتي: فلسفة الدهشة من مفهوم إلى نظرية ـ دراسة تفسيرية ـ الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2023، ص 105.

[2] ـ ديف روبنسون: أقدم لك الفلسفة، تر، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001، ص 23.

وكان أرسطو قد أبان على أن الدهشة هي أصل نشأة التفكير الفلسفي، وأن الإنسان لا تحدوه الرغبة في التفلسف إلا إذا انتابه اندهاش وحيرة. كذا اهتمت المدارس الفلسفية الحديثة منها والمعاصرة بفلسفة الدهشة نورد بعضا مما ذكروه في أعمالهم:

. سورين كيركوغارد: اهتم بمفهوم الدهشة واعتبرها وسيلة للتواصل مع الإلهام الديني والتفكير العميق في الوجود البشري.

. مارتن هايدغر: اهتم بفهم الإنسان ووجوده من خلال مفهوم الدهشة (الواهبي) حيث اعتبر أن واقع البشر مليء بالدهشة والغموض، وقد دعا إلى التفكيرفي الوجود واللاوجود بشكل عميق.

. جون ديوي: اعتم بالدهشة من خلال الدعوة إلى دراسة العلاقة بين التجربة والتعلم، وأشار إلى أهميتها في تحفيز الفضول والاستفهام، مؤكذا على دورها في توجيه الفرد نحو البحث عن المعرفة.

. جورج باتاي: اهتم بفهم البارادوكسات أو المفارقات في الحياة، ورؤيته للدهشة تنبجس من خلال تجليات قدرة الإنسان على التامل في هذه المفارقات والبحث في معانيها وأبعادها[3]. وفوق كل ذلك لنا نماذج وضاءة في تاريخ الفلسفة سطعت بلآلئ سيميائياتها معبرة عن سمو عقلانية طلائع الفكر والمعرفة في أزمنتهم، بينهم أفلاطون الذي ما برحت الميثولوجيا مخيلته إذ لم يتحرر من سجنها فماهى بينها وبين المثل، إذ لم تعبأ بتاتا بصور الحس ومدركاته. وإليك بأسمى أساطير أفلاطون التي وطد من خلالها روحانيات العقل المستغرق بلجيته في عالم الخيال المفارق لخيالات العقل الواقعي، إنها أسطورة الكهف. " قام افلاطون بتسليط الضوء على الفرق بين المعرفة الصحيحة للواقع ووهم المظاهر من خلال صورة مدهشة: البشر أشبه بسجناء مربوطين بجدار كهف تحت الأرض، حيث لا يستطيعون مطلقا أن يلتفتوا ليروا ضوء النار التي هي في مكان أعلى وبعيد خلفهم، وحين تمر أشياء خارج الكهف أمام الضوء يتوهم السجناء أن الظلال المجردة المنعكسة على الجدار هي الأشياء الحقيقية، وما من أحد سوى ذلك الذي يتحرر من قيده ويخرج من الكهف للدخول في العالم الكائن في الخارج يستطيع أن يلمح الواقع الحقيقي"[4].

ب ـ الحيرة: ردة فعل وليس فعل، تصدر عن وجدان المحتار الذي تعوزه الحاجة إلى التساؤل بشأن الموضوعات والقضايا التي تستثيره نظير جهله بها، أو شذوذ حل به دال على لا ألفة القضايا والمسائل التي تعرض له، أو لأنها لا تنسجم ومعتقداته أو أفكاره أو نمط ثقافة يدين بها. والحيرة الفلسفية عالقة على الدوام بسلسلة التساؤلات والأسئلة المتعلقة بوجود الإنسان والكون وكل المسائل التي تتفرع عنها سواء كانت موصولة بالواقع أو تجاوزتها إلى القضايا الماورائية. والحيرة تبعا لذلك تستثير

---

[3] ـ فارس رشيد البياتي: فلسفة الدهشة من مفهوم إلى نظرية ـ دراسة تفسيرية ـ ص ص 100 - 101.

[4] ـ ريتشارد تارناس: آلام الفكر الغربي، فهم اظلفكار التي قامتا بصياغة نظرتنا إلى العالم، تر، فاضل جتكر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العهربية المتحدة، ط1، 2010، ص 70.

فضول العقل الباحث عن الحقيقة. والحيرة تفيد التعجب الذي اتخذ منه ليبنتز وشيلينغ وكذا هايدجر شاكلة التساؤل الفلسفي الميثافيزيقي الجوهري: لم السبق للوجود وليس للعدم؟ أهي تعبير عن عن رجفة الإنسان أمام الموت والألم والشر، والعذاب والمحال؟ أمن عن غربته في العالم وغربة العالم في عينيه؟ هل تصدر عن تجربته الأليمة حين يحس الهاوية التي تفصل الأنا عن الأنت، أم عن عاطفة متقدة للوجود الذاتي الحق (كيركوغارد ونتشه)؟ هل تأتي من حيرته من فعله وسلوكه وتساؤله عن معناه، أم أن الإنسان حيوان ميثافيزقي (شوبنهاور) تدفعه الحاجة إلى طرح أسئلة لا يمكنه الإجابة عنها، ولا يمكنه كذلك التخلي عنها(كانت)؟...."[5]. وجاء تعريف الحيرة في المعجم الوسيط دالا على ' التردد والاضطراب' [6]. والتردد دال على عدم اليقين بالشيء، وقد يؤشر لغموض الأفكار، والحيرة موصولة بنسبية المعارف، وتسلط الجهل على العلم. وقد يراد منها الشذوذ المثير للغرابة واللاألفة، مثل السحر، أو انفتاح العقل على تقنيات الذكاء الاصطناعي. وخيرة الفلسفة عموما آيلة إلى الشك وتنوع طرائق البحث، كذا تنزع الحيرة بالمفكر إلى امتطاء الشك والنقد روحا استحداثية تستجلي خلالها نوازع الوجدان وتكشفات الخيال وفيض الأفكار. وقد تمثلت روح الحيرة في فلاسفة العصر اليوناني المتأخر على يد سقراط وأرسطو وأفلاطون. كذتا عرفت لها مسارات ومعالم في فلسفة الوسيطيين عند القديس أوغسطين وابن رشد وأبي حامد الغزالي وغيرهم.

ج ـ **الإحراج:** ورد في المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة تعريف الإحراج ما نصه: " قياس يتكون من مقدمتين تشتمل الكبرى على قضيتين شرطيتين معطوفتين، وتشتمل الصغرى على إثبات للمقدمتين في المقدمة الأولى، او الإنكار للتاليين فيها، ويكون الاختيار فيه بين بديلين كلاهما مكروه". والإحراج أصناف ثنائي أو ثلاثي أو رباعي وفيه المتعدد، إما دال على النفي بدرجات أو إثبات بدرجات كذلك. وعرف أرسطو الإحراج على أنه قياس ينطوي على تكافؤ بين نقيضين.

'وقد أطلق 'رونوفيه' لفظ الإحراج على التقابل بين رأيين فلسفيين بحيث يلزم عن إثبات أحدهما إنكار الآخر وعن إنكاره إثبات الآخر" [7]. فالإحراج بهذا المعنى هو جوهر الصراع الذاتي في فكر الفيلسوف، فلا ينفك يبارح حواراته وسجالاته الفكرية، والإحراج كذا يوقظ في الذات وعيا متيقظا، يجاوز الوعي الاعتيادي، يمقت استكانية الذات ولا مبالاتها. فالإحراج مجلبة للقلق الفلسفي العميق، يعتمل فيه التفلسف الحقيقي حين يعظم شأن التساؤل النقدي الآخذ في التشعب والانفتاح العقلاني التقدمي.

---

[5] ـ عبد الغفار مكاوي: لم الفلسفة، هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2020، ص 09.

[6] ـ المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004، ص 211.

[7] ـ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 42.

02/ الفلسفة وفضول العلم المعقلن:

أ ـ التأصيل العقلاني الذاتوي: لا يستثنى العقل ولا يغفل له أثر حين يتوجب علينا الإفصاح عن إرث الإنسان المعرفي والثقافي، وقد كانت رحلة العقل مع أبحاثه شاقة ومتعبة، واجه خلالها هم المشكلات وثقل التساؤلات وعبء الرسالات وقيمية الأمانات. وبرغم ذلك لا يبارح الذات الشغوفة بالبحث فضول حب المعرفة وولع الذات المفكرة بالبحث المستدام. وقد كانت الأبحاث الفلسفية على مر الأزمنة والعصور كاشفة عن سر العبقرية ونبوغ الذكاء وحدة الفهم، وشمولية منطق التفسير والتعليل لقضايا وموضوعات شتى. لقد ' قرن أفلاطون بين التفلسف و'الإيروس' بل جعل الحب الفلسفي هو الدافع المحرك للتفلسف، كما قرّب أرسطو وتوماس الإكويني، ـ وكلاهما رأس عقلاني بعيد عن كل شبهة رومانسية ـ بين الفيلسوف والشاعر وبين الفعل الفلسفي والفعل الأدبي لما يجمع بينهما من قدرة على الاندهاش والعلو والارتفاع. وعبارة الإكويني في تعليقه على ميثافيزيقا أرسطو وتستحق الالتفات: ' إن الشيء الذي يجعل الفيلسوف شبيها بالشاعر هو أن كليهما يتعامل مع المدهش أو المثير للعجب'[8]. ثم إن العقلانية الفلسفية فيها من الشذوذ ما يجعلها تغير تراتبيات الواقع وتوقع تعديلات على فهومات ذوي الحس المشترك، لتنشئ مجاوزة ضرورية تتخطى بمقتضاها أضرب السذاجة والعموميات المفرطة في الدوغمائيات الحسية أو الانطباعات الموروثة. وقد آن أوان الروح النقدية أن تخلخل براثين الجهل والسذاجة لتسمو بعالم الإنسان حيث تستلهم قيم وفضائل الإنسان السامية.

خاتمة: التفلسف مراس الفلسفة والفلاسفة على الدوام، وإن عقلا متفلسفا حق له أن يستنير بنور الأفكار والحرية الإرادية، وتأصيلنا المختصر للفلسفة من الداخل ما هو إلا إثارة وتعريف بقدر التأمل الفلسفي الذي يرتد إلى مرجعيات ذاتوية بالأساس تعرف الإنسان ذاته بذاته، وقد تلك دعوة سقراط، ويستلهم من فكره أنطولوجيته وقد كانت تلك حجة ديكارت وتقوم فيه جمهوريات الإرادات الحرة كما نوه بذلك روسو، وأن يملأ قلبه ضمير حي خالص نحو ما قصد إليه كانت. ولا ريب بعدئذ أن رسالة الفلسفة في تأصيلاتها الأولى هي إزاحة الظلام والجهل عن مملة الإنسان، ابتداء بتصحيح مسارات التفكير وإزاحة الأوهام والخرافات والأساطير عن مساراته ومقاصده المثلى.

---

[8] ـ عبد الغفار مكاوي: لم الفلسفة، ص 22.